الأدب فى سير أعلامه :

٤ ـ تولســـتوى ...!

[قبة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

غلام نابه

كان كلما اقترب ليو من إخوته سمعهم يتحدثون عن موســـكو وعن الرحيل إلى موسكو فيرفع بصره إلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هـذا الرحيل ؛ فإن الهم ما يبرح يهجس فى خاطره منذ أن علم بقرب انتقالهم إلى موسكو ؛ ولكن الغلام لا يجد فى وجوههم أية أمارة لذلك الذى يعتلج فى نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلمح إلى الرحيل أو يشير إليه ، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها إخوته بين أيديهم فرحين ؛ وإنه ليشاركهم فرحهم بها وما ينقم منها إلا أنها سوف تلبس فى موسكو ؛ فما قريب يرحل مع إخوته ليتعلموا فى تلك المدينة الكبيرة ؛ وإنه ليعجب كيف يطيقون الرحيل عن يا سنايا بوليانا فيتحدثون عن ذلك الرحيل ضاحكين مستبشرين ويقع الحديث من نفسه موقعاً أليماً .

وهل كان يطيق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات القريبة التى أحبها وألف المرح فى أرجائها ؟ وهل كان يطيق البعد عن الممة تاتيانا وهو لا يجد له أماً غيرها ؟ ومن ذا يكون مربيه فى موسكو مكان تيودور رويسل ؟ وهل هو واجد فى موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها ؟ أيطيق ألا يرى الخدم الذين أحبهم وأحبوه والخيل وكلاب الصيد التى أولع بها وأحب أن يراها كل يوم ؟ ولكن ما من الرحيل بد فليس له إلا أن يصبر عليه ... بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه أو بهذا كانت تحدثه نفسه .

وحان يوم الرحيل ؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به وبإخوته العربة إلى موسكو فما يجدر به أن يبكى وهو ابن ثمان ، وهؤلاء إخوته حوله لا يبكون بل لا يكترثون لشيء كأنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد فى الغابة !

ونظر الغلام فى موسكو إلى مربيه الفرنسى الجديد سنت توماس فإذا هو تلقاء رجل لا يحس فى وجهه ما كان يحسه فى وجه تيودور رويسل من عطف ومحبة وإخلاص ، وما لبث أن وجده يعنف عليه كأشد ما يكون العنف ، فيحبسه فى حجرة ويتهدده بالعصا ، الأمر الذى أغضبه أشد الغضب وكره إليه الغلظة والعنف ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته ؛ كتب بعد ذلك فى مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال «حبسنى سنت توماس أولا فى حجرة ثم جاء يتهددنى بالضرب بعصاه ، ولست أذكر الذنب ولكنه كان أمراً لا يستحق العقاب البتة ؛ وعندئذ ذقت شعوراً مخيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز ، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب ، ولكن نحو القسوة التى يتهددنى بها كذلك » .

وأكبر الظن أن مربيه ما فعل هذا إلا لإهماله وانصرافه عن الدرس ، وعناده إذا دعاه إلى العمل ؛ ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن إخوته فقال : « يرغب نيقولا فى التعلم ويقدر عليه ، ويقدر سيرجى على التعلم ولكنه لا يميل إليه ، ويميل ديمترى ولكنه لا يقدر ، أما ليو فإنه لا يميل ولا يقدر » ولكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله « إن لهذا الغلام رأساً ... إنه موليير صغير » .

وماذا كان فى رأسه يومئذ حتى يسميه مربيه هذا الاسم ؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقمان عليه ، ونفاذ بصيرته إلى أفعال إخوته ولداته من التلاميذ وتفطنه إلى خصائص كل منهم ، فالغلام على حداثته يقظ مرهف الحس ، دقيق الملاحظة للناس وللأشياء جميعاً .

وهو وإن لم يتجاوز الثامنة بعد ، تطوف بقلبه الفض عاطفة

الحب ، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذى يحسه نحو العمة تاتيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم ، وإنما كان حباً كذلك الحب الذى قلما خلا منه قلب فتى أو فتاة فى ربيع العمر ؛ ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة فى مثل هذه السن الباكرة دليلا على الموهبة الفنية ، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون فى غده من الأفذاذ ...

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التى عاشت بين أفراد الأسرة فى كنف عميدها الكونت وكانت تسمى اسلنيف ، وأحب فى موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من آل يوشكين ، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان ينعقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاءه من فرط إحساسه بعاطفته ؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره فى العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سونشكا ، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق ، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته ، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق صادقة خالصة الصدق بريئة من كل شائبة أو غرض ، حتى لقد اتخذها فى مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره ...

أما اسلنيف فكان يغار عليها كأشد ما تكون الغيرة ، لا يطيق أن تحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تتجه حتى بنظرها إليه ، وكان يعسف عليها ويعصف فى وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلا إلى غيره حتى إنه دفعها مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد باغت بها الجراة أن كلمت غلاماً أمامه فسقطت ولحق بها الحرج من جراء ذلك بضع سنين ، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التى غدت سيدة أنجبت بنات وبنين ، وأصبحت أم زوجته فقالت له ضاحكة تذكره بذلك الحادث « أكبر الظن أنك دفعتنى من الشرفة إبان طفولتى لكى تتزوج بابنتى فيما بعد » .

وذاق الغلام فى موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب ، فقد مات أبوه وكان فى طريقه إلى مدينة تولا فى صيف سنة ١٨٣٧ وسقط فى الطريق جسما لا حراك به ، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب ، وآخرون يهمسون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملكت يداه ؛ ويتسلط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحس أن أباه حى لم يمت ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه فى ياسنايا بوليانا ؛ وإنه لينقل بصره بين وجوه المارة فى شوارع موسكو يتوقع أن تقع عيناه على أبيه ، وظل هذا الخيال بضعة أشهر متسلطاً عليه .

ويتفكر الغلام مرة ثانية فى الموت والحياة ، فقد تفكر فى ذلك حين أدرك أن عمته تاتيانا ليست أمه وعلم من نيقولا بموت أمه ؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شىء كريه مخيف ، ولكنه لم يدرك كنهه ، وهو كذلك يحس اليوم مثلما أحس بالأمس ، وإن كان يصحب إحساسه هذه المرة شىء من التفكير والدهشة ، وسيظل هذا شأنه كلما نظر فى الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشىء الكريه المخيف وهو لم يعد من طول النظر فى أمره بشىء .

ولم تكد تمضى تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها ؛ وجاء الربى يحمل النبأ إلى الصبية وهم يلعبون ، فانقلب مرحهم وزياطهم وجوماً وسكوناً ، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينيه يسمع ويرى ، فكم كره مرأى الخاتوطية على مقربة من البيت فى ملابسهم السوداء ، وكم بث فى نفسه الخوف رؤية التابوت بين أيديهم ووجوههم كئيبة عابسة من أثر ما يتكلفونه من الحزن ؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته وبما يسمع من عبارات الرثاء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم ؛ ولقد تندت عيناه ذات مرة متأثرة بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها « إنهم اليوم أيتام كل اليتم فقد مات أبوهم منذ قليل ، وها هى ذى جدتهم كذلك يأخذها الموت » .

وينظر الصبى إلى حلته السوداء المخططة الحواف بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته وقد صنعت لهذا الغرض خاصة ويعجبه منظره فى هذه الحلة فينسى بعض ما يمسه من حزن .

وللغلام فى هذه السن الباكرة اشتغال بما بعد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كان فى مثل سنه ، وذلك هو نظره فى الدين ومسائله ، ولندع تولستوى نفسه يتحدث عن ذلك قال فى مستهل كتابه « اعترافاتى » إنى أذكر كيف زارتنا ذات يوم من أيام الآحاد فى الحادية عشرة من عمرى غلام يدعى فالمير موليتين كان فى إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أحدث الطرائف من الأنباء ألا وهو كشف اتفق وقوعه فى مدرسته ، ومؤدى ذلك الكشف أنه ليس لهذا العالم إله ، وأن كل ما لُقناه عنه إن هو إلا محض اختراع . وإنى لأذكر مبلغ ما داخل إخوتى

من سرور عند سماع ذلك ، لقد دعوني إلى مجالسهم وأذكر أننا جميعاً شعرنا شعور النشوة لهذه الأنباء ، وتلقيناها كأمر سار ممتع ممكن الحدوث كل الأمكان » .

وعرف الغلام منذ حداثته بقوته البدنية وحيويته المتوثبة ، تبين ذلك من حادثة تقصها أخته ومؤداها أن أخاها نزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما فظل ماشياً حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يعدو عدواً سريعاً كيلا تدركه وإخوته في العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه ؛ ولم ينقطع نفسه إلا بعد ميلين فصمد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول أن يخفي تعبه ؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أحياناً من أسقام وآلام حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين .

وكان ليو منذ صغره مولعاً بركوب الخيل ، وقد تعلم الركوب في سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه في ذلك ؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانه يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطي جواداً كما فعلا فإذا به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويمسك بجبهته ، فلما أعيد إلى حيث كان لم يبد عليه شيء من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهو ثابت فوق صهوته ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب .

وفكر الغلام ذات يوم في أمر : لم لا يطير كما تفعل الطير ؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة ؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائراً فيسبح في الجو كما تسبح الطير ؛ وإن في نفسه منذ صغره ليلاً إلى أن يضع ما يهجس في خاطره موضع الاختبار ، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر في مواطن كثيرة ؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها في سبات عميق فيفتح عينيه دهشاً متحيراً يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره ما يحس من ألم من مفاصله وأضلاعه .

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث ، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته ، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل في ذلك إصلاحاً لشكله ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال ، وعمد إلى الشط فجعل به ذلك الشعر في موضع خاص لعل في ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة وليظهره في هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون . وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه فانتزع شعرهما بملقط كي يشتد بعد ذلك نماؤه فيكسب ملامحه مظهراً عاطفياً شعرياً ، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل الأمر الذي ينغص عنده العيش .

ولقد جاء في كتابه « عهد الطفولة » قوله « كنت أعلم حق العلم أني لم أك حسن المنظر ، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتي تسيء إلى إساءة مؤلمة ، ولقد مرت بي لحظات تملكني فيها اليأس وخيل إلي أنه لا يمكن أن تتهيأ السعادة على هذه الأرض لمن كان له أنف كأنفي العريض وشفتان كشفتي الغليظتين وعينين كعيني الصغيرتين الشهباوين ، وسألت الله أن يحدث معجزة فيجعلني وجيهاً فأني لأجود بكل ما هو لدي وبكل ما عسى أن أظفر به في المستقبل في سبيل وجه حسن » .

وفي صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام في موسكو مشهداً استقر في نفسه فلم يبرحها حتى ظهر أثره في أحد أوصافه فيما بعد في قصته الكبرى « الحرب والسلم » إذ وصف موكباً من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات تلك القصة ، أما المشهد الذي رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف فهو موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول في بناء كنيسة أقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون .

ولم يطل بالغلام المقام في موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى يا سنايا بوليانا ليكونا في رعاية العمة تاتيانا ، وبقي الأخوان الكبيران في موسكو ترعاهما الكونتس أوستن سيكن عمتهما على الحقيقة ؛ وكانت الكونتس أوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية صالحة لله في السر والعلن وتنفق مالها في سبيل الله فلا ترد فقيراً ولا تتكره لذي حاجة ، وكانت بالخدم رحيمة عطوفاً تكره أن توقظهن إذا آوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة ؛ وكان أثرها عميقاً في نفس الغلام فكان يشعر نحوها من الأجلال والأكبار بقدر ما كان يشعر نحو عمته تاتيانا من من المحبة ، ولئن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس في الحب فقد أوحت إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين

ولكن هذه العمة قضت نحبها في خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على الأخوة جميعاً لعمة أخرى هي السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوي الثراء من الملاك في قازان ، ثم فقد نقل الصبية جميعاً إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع ١٨٤٧ ؛ على أنهم كانوا يقضون أجازاتهم الصيفية في ضيعتهم المحبوبة بناحية يا سنايا بوليانا .

(يتبع)

الخفيف